تجميل القرية المصرية

للدكتور محمد أبو طائلة

كم تغنى الشعراء بجمال الريف واستوحوه أجمل شعرهم وأبهى قصيدهم ، وكم تعشق الرسامون فتنة الريف واستمدوا منها أبدع رسومهم وأروع لوحاتهم ، وكم أنصت الموسيقيون إلى حفيف الشجر وهدير الطير وخرير الماء فى الريف فاستلهموها أعذب الألحان وأشجى النغم .

فى الريف سكينة النفس وطمأنينة الروح ، وفى القرية ملاذ من ضجة المدينة وضوضاء المدنية وجلبة الصناعة ، وفى الحقل عودة الى الطبيعة ورجعة الى الفطرة وتحرر من قيود المجتمع وخلاص من كلفة الحضارة ، هناك قوة الأمة الكامنة وثروة البلاد الباقية وهناك كنوز من الرجال والأموال وخزائن من الأخلاق والعزائم .

غير أن ذلك الجمال تشوبه شوائب ، وتلك الفتنة تعتورها عيوب ، وتلك القوة تنهكها أدواء . وقبيح بنا أن نبغض الريف من أجل ذلك ، وأقبح منه أن نستهين بالفلاحين وهم أهلونا الأقربون ومنهم آباؤنا وأمهاتنا ومنهم أعز لأقارب والاخوان . بل علينا أن ننظر الى الريف نظرتنا الى البلد العزيز والوطن المحبوب الذى لا تنقطع صلاتنا به مهما بعد المزار وطال الغياب . وعلينا أن نرعى القرية التى نشأنا بها رعايتنا للمنبت الأول والمثوى الأخير ، فمن القرية تكونت المدينة ، ومن أرضها ونباتها وحيوانها تكونت أجسامنا وأرواحنا ومن ذلك الوطن الصغير عرفنا وأحببنا الوطن الكبير .

والآن ماذا ينقص القرية حتى يهجرها أعز أبنائها عليها ؟ وماذا دهى الريف حتى صرنا ننفر من سحره ؟ وأى عيب فى قراه صيرها كئيبة موحشة وقد أرادتها الطبيعة مشرقة فياضة بالبشر والبهجة ؟

إن أول ما يطالع زائر القرية بركة أو مستنقع فى مدخلها قد ركد فيه الماء وأسن وانبعثت منه رائحة تزكم الأنوف ، وعشش فيه البعوض لينقل منه الى الأبدان جراثيم الملاريا المضنية . فاذا نظرنا جانبا الفينا ترعة يستحم فيها طائفة من الكبار والصغار يبغون من وراء ذلك نظافة ومتعة ولا يدرون أنهم يؤوبون منها بمرض البلهارسيا الوبيل . أما الطرقات فهى صاعدة

هابطة، وقد تضيق حتى لا تتسع لمرور عربة. فى وسطها وحول وعلى جوانبها فضلات الأطعمة ومخلفات المنازل. أما الأطفال فينتشرون هنا وهناك لا يكاد يعنى بهم أحد، يلعبون فى التراب حفاة الأرجل عراة الأبدان إلا من أسمال بالية ، وعلى أعينهم الصغيرة الرقيقة جيوش من الذباب الفاتك ، وعلى وجوههم الجميلة طبقات من القذارة . وليس ثم من بيوت غير مبان أقيمت من الطوب النيء لا تكاد تدفع بردا ولا تمنع حرا، تغطيها أكداس من الحطب أعدها سوء الطالع لتكون وقودا لأول حريق يشب ، ولها أبواب تطل من داخلها الظلمة وكأنها أبواب قبور . وقد اختلط السابلة فى الطرقات ، ما بين فأس وماشية وبهم ودواجن .

فاذا دخلت أحد البيوت حسبت أن بين بانيها وبين الصحة عداء قديما وخلافا مقيما : فكل ما تتطلبه قواعد الصحة قد خولف ، وكل ما يرضى دواعى المرض قد اتبع . فالنوافذ فى اتجاه لا تطرقه أشعة الشمس، ضيقة كأنما خيف أن ينفذ منها الهواء الى الداخل والرائحة الكريهة الى الخارج ، عالية كأنما أريد ألا يبصر من بداخلها النور ، والحوائط مجردة من الطلاء والجير القاتل للجراثيم ، والأرض عارية تنبعث منها الرطوبة فتعمل عملها المخرب فى الأبدان والأقدام الحافية . وقد تجلى حب الفلاح لماشيته وحرصه عليها فهو يأبى إلا أن يسكنها معه فى عقر داره راضيا فى سبيل ذلك بسوء الرائحة وفساد الهواء وقذارة الروث .

فاذا جن الليل وأوى الفلاحون الى بيوتهم خيل اليك أن الحياة قد خمدت وأن الموت قد نشر على القرية رداءه ، فلست تسمع إلا نباح الكلاب أو صياح الديكة أو زئير الرياح، ولست تبصر إلا ظلمة محيطة قد يتخللها شعاع القمر إذا لاح ويقطعها وميض النجوم إذا راقت صفحة السماء .

وهكذا يقضى الفلاح نهاره فى كد متصل بالحقل ، ومساءه فى سأم مضجر بالبيت وقد حرم المتعة البريئة، والسمر المفيد، والتسلية المروحة عن النفس المجددة للقوى .

وهكذا تبقى القرية مباءة للأقذار والأمراض ، تمر عليها الأعوام والأجيال وهى بمعزل عن أسباب المدنية ووسائل الحياة الهنية غير دارية بما يجرى فى المدن من تقدم ورقى .

هذه صورة معتمة للقرية المصرية، ولكنها مع هذا صورة صادقة يعرفها كل من يزور القرى، وما هكذا القرية كما نشهدها بالدول الغربية ، بل ببعض الأقطار الشرقية التى لا تدانينا ثروة ومكانة. فهناك جمعت القرية بين مزايا الريف ومزايا الحضر، ففيها من الريف سكونه وصفاؤه وخيره ورخاؤه ، وفيها من الحضر رقيه ومدنيته وأنسه وبهجته. ولقد رأيت القرى فى بعض الدول الغربية وهى تشرب من ماء رائق وتضاء ليلا بالكهرباء ، ولها طرق معبدة وليس فيها من القذارة شائبة سواء فى المساكن أو الشوارع أو الأشخاص ، وأسباب الصحة كلها موفورة عند الأهالى كبارا وصغارا وقد قويت أبدانهم وترقرق ماء العافية فى وجوههم

وبعدوا عن عوامل المرض ونشأ أطفالهم صحيحي الأبدان، سليمي الأبصار، لا ترى منهم حافيا ولا عاريا . فاذا كان هناك فرق بين القرية والمدينة فلا يعدو درجات معدودات ترجع الى صغر الأولى وكبر الثانية ، بينما البون بينهما فى مصر شاسع يقاس بآلاف الدرجات حتى لكأن الاثنين لا يجمعهما بلد واحد ولا يسكنهما شعب واحد .

والآن وقد وصفنا عيوب القرية المصرية وأبرزنا نقائصها لم يبق إلا أن نقول إن علاج تلك النقائص والعيوب سهل اذا صدقت النيات ، وتضافرت الهمم. ولا بد لى هنا من أن أبدد خطأ ساد الأذهان وهو أن إصلاح القرية المصرية منوط بالحكومة وحدها، موكول الى السلطات الادارية دون غيرها . كلا فان ذلك يكلف الحكومة فوق طاقتها ويلقى على عاتق المالية العامة أعباء تنوء بها ، لأن كل مشروع من مشروعات الاصلاح يتطلب عشرات الملايين من الجنيهات، فما بالكم اذا وجب الاصلاح فى جميع النواحى من صحة وتعليم وتمدين وتعمير ؟ وبعد فهل نضمن اقبال القرويين على الاصلاحات وانتفاعهم بها ما داموا لم يؤمنوا بوجوب هذه الاصلاحات بداءة بدء وما داموا لم يساهموا فى تحقيقها برغبة وارادة واقتناع ؟

إنما يقع واجب اصلاح القرية على عاتق سكانها وأهليها قبل غيرهم ، وكلهم مطالب بذلك ومسئول عنه لا يختلف فيه الفلاح الموسر الكبير والفلاح الفقير الصغير . فأما الأول فان عليه أن يكون قدوة للثانى فى نظافة المسكن والملبس واتباع القواعد الصحية والعادات السليمة ، وعليه توفير البيئة الصحية فى القرية كلها جهد إمكانه لا فى بيته وحده . وأما الثانى فعليه أن يقتفى أثر القدوة الصالحة ويستمع إلى الارشاد المفيد ، وعليه أن يترك العادات الخطرة التى تجيئه بالأمراض مثل الشرب والاستحمام بماء الترع ، ومثل تلويث مجارى الماء وترك القذارة والذباب تطغى على أبدان عياله وتفسد حبات عيونهم .

وهنا يقع واجب وطنى جليل على أبناء القرية من الشباب المتعلم كالطلبة والموظفين وأمثالهم . فعلى كل منهم أن يكون مرشدا لأهالى قريته يبين لهم القواعد الصحية ويسعى جهد طاقته فى رفع مستواهم الفكرى والاجتماعى كلما عاد إلى قريته ولا شك أن لخطباء المساجد والأئمة والوعاظ مجالا واسعا ورأيا نافعا فى ميدان الوعظ والارشاد .

على أن الإرشاد وحده لا يكفى، فهناك مرافق لا بد من انشائها والانفاق عليها . وتلك قبل كل شىء مهمة الهيئات القروية كالجمعيات التعاونية والمجالس القروية، وواجب الدوائر الزراعية الكبيرة التى تهمها هناءة الفلاح، ويعنيها تقدم القرية. وكلها أقدر على الانشاء والانفاق من الفلاح الكبير والفلاح الصغير .

ومع هذا لابد من عون الحكومة المادى وإرشادها الفنى، وإشرافها العام على تلك الجهود. وهى مهمة وزارة الشؤون الاجتماعية التى جعلت تحسين حال الفلاح وترقية القرية فى مقدمة

غاياتها ، ومن أجل ذلك وضعت مشروع المراكز الاجتماعية فى الريف وجعلت أساسه أن يقوم أهالى القرى بالاصلاح اللازم لهم ولقراهم ، مع معاونتهم عليه بالمال والارشاد والتوجيه القويم والرقابة الصالحة .

و بناء على ذلك المشروع ينبغى لكل مركز اجتماعى فى كل قرية أن يسعى فى اصلاحها من جميع الوجوه . فأما من الوجهة العمرانية فعليه أن يبذل الجهود لتحسين المساكن وتعبيد الطرقات وإنارتها ليلا وغرس الأشجار على جوانبها وردم البرك والمستنقعات ، وأن ينشئ كذلك متنزها عاما وملعبا للصغار . وأما من الوجهة الاجتماعية فعليه أن ينشئ مكتبا لتعليم الأميين الكبار وأن يعد مكتبة قروية عامة تحوى الكتب الدينية والزراعية والأدبية الملائمة للفلاحين المثقفة لأذهانهم ، وأن ينشئ ناديا يجتمعون فيه للسمر وتلقى الإرشادات وسماع المحاضرات ومشاهدة أفلام السينما المفيدة ، على أن يكون فى النادى جهاز راديو للترويح عن النفوس وتبديد السأم الذى يخيم على القرية ليلا هذا فضلا على عناية المركز الاجتماعى بفض المنازعات بين الأسر ، ورعاية شؤون العائلات ، ونشر أسباب الوئام والصفاء بين الأهالى ، وتنظيم أعمال البر والمواساة ، وادخال الألعاب الرياضية المناسبة ، وتعويد الفلاحين تمضية وقت فراغهم فيما يفيد . وأما من الوجهة الصحية فان على المركز الاجتماعى أن ينشر التعاليم الصحية و يكافح العادات الخطرة و ييسر للأهالى سبل الوقاية والعلاج .

أما بعد ، فما بال ابن الريف يهجر القرية المصرية اذا هى برئت من عيوبها ، وخلصت من مساوئها وعادت قرية صحية نظيفة ، فيها سبل معبدة ، وأشجار مغروسة ومتنزه يتوسطها وملعب لصغارها وقد زالت منها البرك وولت أسباب الأمراض ؟ ما باله يهجر القرية المصرية اذا صار فيها ناديجمع أهلها و يعودهم الحياة الاجتماعية و يبث فيهم روح الجماعة والى جانبه مكتبة عامة تحوى مختلف المصنفات لتثقيف العقول وتوسيع المدارك ، هل يبقى من الضجر والملل أثر فى القرية اذا هى أمدت بالمصابيح تضىء طرقاتها ليلا و بالاذاعة تشق الأثير تحمل اليها الموسيقى والغناء ؟ واذا عنى أهلها بتنمية مواردهم وتحسين صحتهم والتفتوا الى الناحية الاجتماعية يسدون كل ثغرة فيها وانتشرت بينهم الألعاب الرياضية تقوى اخلاقهم وتزيدهم تماسكا وتضامنا .

لا ريب أن القرية المصرية تصبح بعد ذلك شبيهة بالقرية الغربية ولا شك أن الريف المصرى يصبح كما يصفه الشعراء و يصوره الفنانون و يومئذ لا عذر لأعيان القرية اذا هجروها الى المدن وهم الذين لا يلتمس لهم عذر الآن عن ذلك . و يومئذ يصبح الريف المصرى كالريف الانجليزى منتجعا لأهالى المدن كلما نشدوا الصحة والرياضة والاستجمام يشيدون فيه الأكواخ والمنازل ليقضوا فيه نهاية الأسبوع والإجازة الصيفية .

لقد آن للريف أن ينهض من كبوته ، وينفض عن نفسه غبار التأخر ، وآن للقرية المصرية أن تأخذ بأسباب الصحة والمنعة والجمال .

محمد أبو طائلة